

حول التاريخ والدراسات التاريخية

خير الدين قناده



هذا الموضوع دراسة موجزة ليس إلا وإثارة لبعض الأفكار والمفاهيم ذات الصلة بعلم التاريخ والدراسات التاريخية عموماً ومقارنتها، سواء الدراسات ذات المنظور الإسلامي أو غيره. فأمام النظريات المتعددة لتفسير التاريخ قد يضع المنهج وتضييع معه الحقيقة التاريخية مما يجعل الحاجة ملحة لوضع ضوابط تحترم في تفسير تاريخ الإنسانية المشترك حتى نستخلص القيمة والحكمة الإنسانية المنشودة. في المسيحية يعتبر عالم المثل غير قابل للتطبيق في واقع البشر وبالتالي يكون التاريخ محصلة مجموع صراعات البشرية بالضرورة والتي يحكمها قانون الغلبة للأصلح أو للأقوى.

أما عند اليهود فيجب لي عنق التاريخ ليصب في خدمة قضية شعب الله المختار أينما حل وارتحل مكاناً وزماناً.

بالنسبة للمسلم الذي يؤمن أن الله وضع لهاته الحياة سنناً ونواميس لا تتغير ولا تخاف بل تحكم مسيرة البشرية عبر تاريخها بقواعد قابلة للتحقيق والتطبيق فإن العملية التاريخية هي محصلة رحلة البشرية لتحقيق خلافة الإنسان وملوكوت الله في الأرض، وهاته القواعد تحكمها سنن المدافعة في إيجابية لا تنفج حمر عثرة أمام عملة التاريخ بل تدفع المسلم للإسهام في بناء هذا الصرح كل من موقعه في إطار النظام الإلهي الموزون.

إن التفسير الإسلامي للتاريخ يقوم منهجه على تكامل الروح والمادة والثوابت والمتغيرات والكلية والجزئية وهو لا يأخذ بعامل واحد منفصل بل بهاته العوامل مجتمعة، أما ضابطه فالعقيدة التي تجمع كل مظاهر الحياة المادية والروحية والاقتصادية والاجتماعية، ولذلك فإن أي تفسير للتاريخ مآله مجانب للصواب إذا لم ينضبط بضوابط القرن الكريم في تناول القضايا التاريخية.

إن التفسير المادي للتاريخ يجد نفسه عاجزاً أمام الحركة الروحية والشفافية الدينية التي عرفتها الحضارات الإنسانية، وبذلك فهو يطرق جانباً ضيقاً لا يمثل شيء أمام بقية الجوانب الأخرى.

إن المنهج الإسلامي في البحث التاريخي منيع علمي بامتياز بل إن علم ومنهجية تحقيق الخبر والنقول والروايات عند المسلمين لم تعرف عند غيرهم من حضارات اليونان إلى حضارة أوروبا الحديثة مما جعل الخبر المروي الأقرب للصدق والحقيقة والموضوعية والأبعد عن التعصب الذاتية والتزوير.

(29) ما يلقيه الله سبحانه من الرعب والخوف في قلب العاصي فلا تراه إلا خائفاً مرعوباً فإن الطاعة حصن الله الأعظم الذي من دخله كان من الأمنين من عقوبة الدنيا والآخرة ومن خرج عنه أحاطت به المخاوف من كل جانب فمن أطاع الله انقلبت المخاوف في حقه آمناً ومن عصاه انقلبت مأمنه مخاوف فلا تجد العاصي إلا وقلبه كأنه بين جناحي طائر.....

(30) أنها تعمي بصيرة القلب وتطمس نوره وتسد طرق العلم وتحجب مواد الهداية

وقد قال مالك للشافعي رحمهما الله تعالى لما اجتمع به ورأى تلك الخبايا في يرى الله تعالى قد ألقى على قلبك نورا فلا تطفئه بظلمه المعصية

(31) أنها تصغر النفس وتقمعها وتدسسيها وتحقرها حتى تكون أصغر كل شيء وأحقه كما أن الطاعة تنميها وتزنيها وتكرها قال تعالى: إِنْ قَدْ فَلَحَ مِنْ زَكَاةَا وَقَدْ حَابَ مِنْ دَسَاةَا} والمعنى: قد أفلح من كبرها وأعلاها بطاعة الله وأظهرها وقد خسر من أخفاها وحقرها وصغرها بمعصية الله

(32) أن العاصي دائماً في أسر شيطانه وسجن شهواته وقيود هواه فهو أسير مسجون مقيد ولا أسير أسوء حالاً من أسير أسره أعدى عدو له ولا سجين أضيق من سجن الهوى ولا قيد أصعب من قيد الشهوة فكيف يسير إلى الله والدار الآخرة قلب مأسور مسجون مقيد؟ وثيف يخطو خطوة واحدة؟ وإذا قيد القلب طرقته الآفات من كل جانب بحسب قيوده.....

(33) أنها توجب القطيعة بين العبد وبين ربه تبارك وتعالى وإذا وقعت القطيعة انقطعت عنه أسباب الخير واتصلت به أسباب الشر

(34) أنها تحقق بركة العمر وبركة الرزق وبركة العلم وبركة العمل وبركة الطاعة. وبالجملة تحقق بركة الدين والدنيا فلا تجد أقل بركة في عمره ودينه

(35) أنها تجتري على العبد من لم يكن يجتري عليه من أصناف المخلوقات فتجترى عليه الشياطين بالأذى والإغواء والوسوسة والتخويف والتحرين وإفسائه ما به مصلحته في ذره ومضربه في نسيانه فتجترى عليه الشياطين حتى تؤذيه إلى معصية الله أذا وتجترى عليه شياطين الإنس بما تقدر عليه من الأذى في غيبته وحضوره وتجترى عليه أهله وخدمه وأولاده وجيرانه حتى الحيوان إليهم.

(36) أنها تخون العبد أحوج ما يكون إلى نفسه فإن كل أحد يحتاج إلى معرفة ما ينفعه وما يضره في معاشه ومعاذه

(37) أنها تزيل النعم الحاضرة، وتنقطع النعم الواسلة، فتزيل الحاصل، وتمنع الواصل، فإن نعم الله ما حفظ موجودها بمثل طاعته

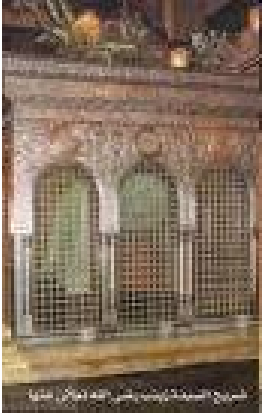
(38) أنها تباعد عن العبد وليه، وتنف الخلق له، وتصحهم له، ومن سعاده في قربه منه: وهو الملك الموكل به، وتدني منه عدوه، وتغش الخلق له، وأعظمهم ضرراً له: وهو الشيطان، فإن العبد إذا عصى الله تباعد منه الملك بقدر تلك المعصية، حتى أنه يتباعد منه بالكذبة الواحدة مسافة بعيدة.

مأخوذ بتصرف من كتاب الداء والدواء لابن القيم الجوزية رحمه الله تعالى

وفي العصر الحديث حاولت عدة تفسير غربية للتاريخ أن تفرض وجهة نظرها في هاته العملية من خلال تقديم نظريات على أنها مسلمت وبيدييات عقلية منها نظرية التفسير البيولوجي التي ترى أن التاريخ يتناول حياة الإنسان من حيث هو إنسان ويبحث في أثر الزمن عليه إذ أن البيولوجية أساسا هي البحث عن أثر الزمن في الكائنات الحية نوا واضمحلالا ، ونظرية أخرى ترى أن المخططات الهائلة في التاريخ و المفصلية ما هي إلا نتاج أزمنة نفسية لا أكثر فيما يرى أرنولد توينبي أن المجتمعات الإنسانية هي مواضيع التاريخ الصحيحة وليس الشعوب والأقطار . هذا فضلا عن تفسير أخرى كالتفسير السياسي للتاريخ الذي وضعه هيجل والتفسير الجغرافي والاقتصادي والاجتماعي والنفسى ، وكلها تفسير قاصرة تقوم على مجرد احتمالات وفروض مع التركيز على جانب بعينه دون بقية الجوانب التي تؤثر بدورها .



وعليه فإن الاختلاف والتباين بين التفسير الإسلامي للتاريخ ووجهات النظر الكثيرة في التفسير الغربي لا يفتأ يتزايد خصوصا مع محاولات الغرب فرض وجهة نظره وقصور الدراسات التاريخية الإسلامية عن مواكبة التطور العام في حياة البشر والمجتمعات ونشر وجهة نظرها ، ومع نجاح الغزو الثقافي والإستشراق في تحريف أوصال الأمة والتأثير في معارفها ظهرت الحاجة لإعادة كتابة التاريخ الإسلامي خاصة بما يخدم الأمة ويحقق المنافع المرجوة.



إن المطالع للدراسات التاريخية التي تناولت تاريخ المسلمين يسجل أول ما يسجل نقص هاته الدراسات من حيث الكم خاصة الحديثة منها ، فالمسلمون اليوم يتوزعون في مناحي شتى من العالم عبر القارات الخمس في حين لا زال التاريخ الإسلامي مقتصرا على مسلمي المشرق أو العرب ، أما ما وقع ويقع لمسلمي الغرب والشرق والجنوب والشمال فلا يكثر له أحد ، أين تاريخ مسلمي البوسنة والهرسك وأثر المسلمين في أوروبا ؟ أين تاريخ المسلمين في الصين وشرق تركيا ؟



وإذا كان التاريخ الإسلامي مقتوصا من حيث الكم فهو من حيث الكيف مشوشا بل مغلوطا من أثر الإستشراق والاستغراب ويحتاج إلى مراجعات ووقفات وتصحيحات خصوصا ما تعلق بتاريخ الأمة في الحوادث والمخططات المفصلية كالحروب الصليبية والحملة الفرنسية والفتوحات الإسلامية وسقوط بغداد والأندلس وحروب الفتن والاستعمار الحديث ...



إن المراجع للتاريخ الذي يدرسه طلابنا عبر مختلف مراحل التعليم يقف مدهوشا أمام التزييف المقصود والغير مقصود ، ما يجعلنا في حاجة ملحة لإعادة كتابة التاريخ على نحو سليم تثبت فيه الصحيح ونثمنه ونصح فيه الخطأ ، ولعل تفسير الأحداث التاريخية وتعليل صيورتها أهم ما يحتاج للوقوف عنده ومراجعته لما تخلفه هاته الأحداث من وجهات نظر متغايرة تبعا لتغاير الخلفيات ولا يخفى ما للتاريخ من أثر في التربية وصناعة الناشئة ، وإذا كانت صناعة المستقبل تنطلق من أغوار التاريخ في امتداد تصاعدي عبر صياغة المعارف الكونية فإن هذا التاريخ كذلك هو إطارها وقيمتها المطلقة التي بأيدينا نحن ان نجعلها موجبة أو سالبة من خلال معايير عدة أهمها مدى الصدق والكذب أو الصواب والخطأ أو المدح والذم ، وفي صياغة تاريخ الإنسانية فإن هاته الموازين تصبح من الأهمية بمكان لأنها تقدم حصيلة الجهد البشري وبنائه التراكمي من أوله إلى آخره وهي اختلال في هاته الموازين ينزع الثقة والمصداقية من هاته الكتابات ، ثم تأتي العصبية كأداء الدراسات التاريخية لأنها تدفع للبي عنق الحقيقة أي كانت وتغطيها وتباعد الهوى وإن صاحبها ليرفع ويضع من يشاء ويحلل الحوادث والظواهر كما يشاء دون ضابط علمي أو منهجي ثم يستخلص النتائج التي يشاء ليقدمها على أنها الحقيقة المطلقة وهاته أكبر مصائب الدراسات التاريخية التي ابتلينا بها .



وقد واجه التاريخ الإسلامي حملة عشواء من التشكيك والمغالطات وإثارة الشبهات حوله قصد انتقاصه ونزع الثقة من موروث الأمة ما من شأنه أن ينزع الثقة من ماضي وراث المسلمين بل ومن أنفسهم كذلك ويبيع مستقبلهم. لقد عجز التفسير الغربي للتاريخ بمختلف مناهجه ولحد الآن عن استيعاب وفهم حقائق التاريخ الإسلامي وهضمها خاصة أمام طواهر تعلق عن التفسير المادي كآثر الإسلام في المحيط الذي بعث فيه مكانا وزمانا وسرعة انتشاره بل قبل هذا كله أثر الإيمان في تحويل ذلك العربي الجلف إلى صانع الحضارة ومسهم في بناء التراث الإنساني .

إن الدراسة والكتابة الصحيحة للتاريخ لا تتكامل إلا بانتقاء قوانين الحقيقة والجبرية والعصبية الذاتية لأن التاريخ هو حصاد مشترك لمسيرة البشرية كلها عبر مختلف تفاعلاتها في صيرورة إطارها الحرية والمسؤولية ، وبالتالي فهو ليس نتيجة حتمية أو جبرية لا يمكن استخلاص أي أحكام أو مواظ منها بل إن المجتمعات لتجد سندها ومنطلقاتها في تاريخها ، والمسلم الذي يؤمن أن الله هو الفاعل الحقيقي لأحداث التاريخ وأن الإنسان هو مركز هذا الكون ، ينظر خلفه فيلتي تراثا زاخرا انضبط بقوانين وسنن تونية لا تتخلف ولا تخافي وما عليه إلا ان يحسن قراءة وفهم هاته السنن القراء المنهجية وليس مجرد المطالعة الترفيية وحينها سينطلق حثيثا نحو بناء مستقبله ثابت الخطى ثبات ماضيه العتيده.